

في نور محمّد فاطمة الزهراء

يقيمون صلبه ثم يقهرونه على المشي وإن تخاذلت قواه، والتوت تحته رجلاه!! كان كلّهم همّهم أن يضعوه دائماً في مرمى الأحجار، أن يذيقوه الإذلال، أن يتلذّذوا بما يعانيه. وأثخنه الجروح، واحمرّت الأرض، واختضبت نعلاه... فما كان يسير إلّاّ على دمه المهرق [719]. وعندما قيّص [720] له أن يبلغ نهاية طريق العذاب، وفترت عنه حدّة المحنة، وقف مليّاً يلتقط أنفاسه، ثم رفع يديه إلى السماء، وهو غارق من قمة رأسه إلى أخمص مَـيّه في الدم والعرق والتراب، متّجهاً إلى الله يستصرخه ويستعينه على بلواه. وكان نشيد المناجاة الذي انطلق به قلبه من طرف لسانه داعياً صارعاً، في خشوع واسترحام: «اللّهم إليك أشكو ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين! أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمني، أم إلى عدوِّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، لكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوّة إلّاّ بك». فأبى نشيداً إنّه لغناء في الله! ديباجة [721] نُـسـِـرَت من ذوب القلب وصفاء الروح، اللحمية من غزل الألم العبقري، ومن خيوط أشعّة الإيمان السداة. وأكثر ما يكون الإنسان قريباً من ربّه ساعة المحنة والبلاء، فإن تكن غمّة تنزل بامرئ وتطبق عليه، فليس ثمّة عندئذ من مفرع له إلى لطف الرحمن، هو أهدى سبيلاً وأقوم من هذا النشيد النبوي العذب، الذي صيغت كلماته وحروفه من ضياء اليقين.